۱۳۵۸۷

مجله	الازهر
تاریخ نشر	شوال ۱۳۹۱
شماره	۸ سال ۴۲
شماره مسلسل	
محلّ نشر	قاهره
زبان	عربی
نویسنده	مصطفی الطیر
تعداد صفحات	۷۱۰ - ۷۱۸
موضوع	المفاضله بین الانبیاء
سرفصلها	
کیفیّت	
ملاحظات	

دراسات قرآنية :

المفاضلة بين الأنبياء

للأستاذ مصطفى الطير

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ؛ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله » (الآية ٢٨٥ من البقرة)

كتب إلينا السيد/ محمد أبو المكارم خليفة الموظف بالإصلاح الزراعى ، أن أحد زملائه المسيحيين الموظفين بالإصلاح الزراعى ، بالزعفران مركز بيلا ، سأله بعض الأسئلة التى يبغى من ورائها تشكيك المسلمين زملائه فى عقائدهم ، ثم شافهنا بأنه يتابعهم بأمثال هذه التشكيكات ، وحتى لا يكون لهذه التشكيكات أثرها الذى يبغيه صاحبها ، يرجو السائل الإجابة على ما كتبه إلينا فى شأنها .

ونحن إذ نستجيب إلى طلبه ، نوجه نظر ذلك الزميل المسيحى ، إلى أنه لا يصح له ـ كما لا يصح لغيره ـ أن يدخل نفسه فى هذا الجدل الذى من شأنه إثارة الخصومة بين أبناء الوطن الواحد ، فى وقت تحتاج فيه الأمة إلى المحبة والترابط والبعد عما من شأنه التفريق وزرع الأحقاد ، فنحن أمام عدو مشترك ، يكفر بعيسى كما يكفر بمحمد عليهما الصلاة والسلام ؛ ويكفر بالنصرانية كما يكفر بالإسلام ؛ وأن واجب الوطن على الجميع ؛ أن يقابلوه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا كما هو شأن المواطنين المخلصين .

وليعلم الزميل الذى يتابع شبهاته وتشكيكاته أنه لا يليق أن نسمع أصواتا ناشزة ؛ فى وقت نحتاج فيه إلى وحدة الأصوات ووحدة القلوب .

ومحاولة النيل من الإسلام ؛ لم تجرب من أفراد فحسب ؛ ولكنها جربت من أمم قوية ؛ فباءت بالفشل ، وأحيانا كانت تأتى بنتائج إيجابية للمسلمين بدخول الغزاة فى دين الإسلام بعد مخالطة أهله والتعرف على حقائق دينهم ، فالمغول

الذين اكتسحوا الممالك ، ومنها بعض الأقطار الإسلامية ، دخـــل منهم فى الإسلام أعـداد هائلة ، وأصبحوا من أعظم أنصاره ، وها أنت ذا تعلم أن وسط آسيا منهم، وأن أكثرهم مسلمون والحمد لله ، كما أنك تعلم مصير الحروب الاستعمارية الصليبية وغيرها فى الجزيرة العربية ، وصدق الله إذ يقول « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون (٣٢) التوبة .

وكل من يحاول ذلك فهو بمشيئة الله تعالى على حد قول الشاعر :

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وبعد هذه المقدمة نعود إلى الشبهات فنجيب عليها فيما يلى :

تفضيل إسحاق على إسماعيل جهل :

يقول الزميل المسيحى لزميله المسلم ما يأتى :

(١) المسيحيون أبنـــاء إسحاق ، والآيات الواردة فى تعظيم إسحاق أكثر من الآيات الواردة فى تعظيم إسماعيل .

(٢) إسحاق هو ابن السيدة، وإسماعيل هو ابن الجارية .

وغرض الزميل المسيحى من ذلك أن إسحق الذى هو جدهم كما يقول أفضل من إسماعيل الذى هو جد النبى محمد صلى الله عليه وسلم لأمرين : أحدهما كثرة مدح القرآن لإسحق وقلة مدحه لإسماعيل ، وثانيهما أن إسحق ابن حرة ، وإسماعيل ابن جارية .

وردا على هذا نقول ، إن الله لا يرسل من عباده إلى خلقه ، سوى أكملهم وأقربهم إليه ، وإن درجتهم العالية عند الله ترجع إلى أنهم رسل الله ، ورسول العظيم لابد أن يكون عظيما ، والدخول فى المفاضلة بين الرسل ، فيه من سوء الأدب مع الله ورسله ما لا غاية وراءه .

ولا يحق لأحـد أن يجعل من نفسه قاضيا بينهم ، فيحكم بأن هذا أفضل من ذاك ، فمن نحن حتى يكون معيار فضلهم بأيدينا ، وحسب شهواتنا وأغراضنا .

صحيح أن الله تعالى فضل بعض الرسل على بعض ، كما قال « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات » (٢٥٣ البقرة) ولكن تفضيلهم من شأن الله ، « والله أعلم حيث يجعل رسالته » وما دام

لم يرد نص فى تفضيل إسحق على إسماعيل أو العكس ؛ فلا يصح أن يسىء أحد الأدب ، ويقول بفضل أحدهما على الآخر ، بل لو فرض وجود نص فمن الأدب الإمساك عن المفاضلة ، وما سمعنا عن أحد من العقلاء فضل أحدا على آخر، لأن أم الأول حرة وأم الثانى جارية ، فالفضل لا يرجع إلى الأمهات ، ولا إلى الحرية ، وإنما يعود إلى الخلق والدين بين المتفاضلين ، هكذا يقول العقلاء والفضلاء ، وهكذا تعلمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

وهل من الأدب مع رسل الله أن يقال عن أحدهم إنه ابن حرة ، والآخر ابن جارية ، وكلاهما ابن خليل الرحمن وهل يصح أن يقوله رجل يعيش فى عصر يحرم استرقاق الإنسان لأخيه الإنسان.

وهل كون الرجل ابنا للجارية يعوقه عن بلوغ أعلى المكارم والمنازل بحيث يفوقه ابن الحرة ، ألم يقرأ صاحب هذه الأسئلة عن الأمين ابن الحرة والمأمون ابن الجارية ، وأن الأول كان مدللا ففشل فى حكمه ودالت دولته، وأن الثانى كان جادا فنجح فى حكمه وبقيت دولته، وامتاز عصره بالنشاط العلمى البعيد المدى وإذا كان الأمر كذلك فما معنى الشغب فى أمور لا هى فى العير ولا فى النفير .

ألا فليعلم السائل المشاغب أن إسماعيل هو أول من أدخل فرحة البنوة فى قلب أبيه إبراهيم ، ثم رزق أبوه إسحاق بعده من سارة بعد أن كانت عقيما ، فتمت به فرحة أبيه ، وكلاهما له العز فى الدنيا والآخرة ، لبنوته لخليل الرحمن، ولتبليغه الرسالة عن رب العالمين ، ولقد علمنا القرآن الأدب مع رسل الله جميعا فقال : « لا نفرق بين أحد من رسله » كما علمنا ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ قال « لا تفضلونى على يونس بن متى » مع أن يونس عليه السلام آخذه الله تعالى ، إذ ترك قومه لما بدت أمارات نزول العذاب بقومه ، قبل أن يأمره الله بتركهم « فالتقمه الحوت وهو مليم » أى آت بما يلام عليه « فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون» ومع هذا فقد نهانا نبينا عن تفضيله عليه تأدبا مع رسل الله صلوات الله عليهم أجمعين .

فمن هذا نعلم أنه لا ينبغى التفريق بين رسل الله فى الإيمان أو الفضل ، فإن المفاضلة بينهم ، والجدل الذى يكون حول ذلك ، ربما أدى إلى انتقاص أحدهم ، أو تهوين أمر رسالته أو الخلاف بين أهل الأديان ، فى حين أن تقدير منازلهم من شأن علام الغيوب دون سواه.

ولقد نسى موظف الإصلاح الزراعى فى غمرة انتقاصه لإسماعيل عليه السلام ، أنهم انتقصوا إسحاق الذى أراد أن يفضله على إسماعيل ، فقد جعلوه ولدا عاقا مشاغباً لأبيه ، إذ قالوا إنه صارع الله تعالى ، وأوشك أن يغلبه ، فضربه الله (فى حق وركه) فحدث له عرق النسا بسبب ذلك كما جاء فى العهد القديم . وإسحاق عندهم هو ابن الله البكر ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، إنكم لا ترضون لأحد من البشر أن يصارع أباه ، وتجردونه عن الأدب وتصفونه بالوقاحة ، فكيف رضيتم لابن الله البكر فى زعمكم أن يصنع ما صنعه بأبيه ، ثم تذهبون بعد ذلك إلى تفضيله على إسماعيل .

ثم بعد ذلك نسألكم : أيصح لأسرة محترمة أن يتصارع فيها الأب مع ابنه والابن مع أبيه ، وإذا كان هذا لا يصح فى الناس ، فكيف رضيتم للأسرة الإلهية التى زعمتموها أن تكون أسرة مشاغبة وأن تسووها بغوغاء البشر وأهل الانحراف الذين يتصارعون لغير سبب ، وصدق الله إذ يقول : « وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون » (٦٧ الزمر)

وليعلم السائل المشكك أن المسيحيين ليسوا كلهم أولاد إسحاق كما ادعى ، بل أولاده هم مسيحيو بنى إسرائيل ، أما المسيحيون فى أنحاء الأرض ، فهم من أصول شتى كما يعرفه صغار التلاميذ .

وليست كثرة الثناء على إسحق وقلته على إسماعيل فى القرآن - إن صح ذلك - دليلا على فضل إسحاق على إسماعيل ، ولكنها دليل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم (وهو خير ولد إسماعيل) ليس متعصباً لأبيه ، وأن كتاب الله الذى أنزله عليه يكتفى فى حق أبيه من الثناء بما لا يتهم فيه بالمبالغة ، بينما هو فى حق إسحاق وغيره يكثر من الثناء ، أرأيت

لو أن أحداً بالغ فى الثناء على أبيه أوجده وقصر فى الثناء على من هم مثله فى الفضل، أفيكون محمودا عند العقلاء ؟ كلا .

الذبيح إسماعيل لا إسحاق:

٣ — ثم يمعن الزميل فى التشكيك فيقول : إن التوراة ذكرت أن الذبيح هو إسحاق ، وليس إسماعيل ، وكذلك تقول كتب قصص القرآن وبعض المفسرين — كذا يقول .

ونجيب على ذلك بأن هـــذه ليست بعقيدة حتى يتعين على المكلف معرفتها بيقين ، ولكنها مسألة تاريخية ، وسيان عندنا أن يكون الذبيح إسماعيل أو إسحاق ، فكلاهما نبى ، وكلاهما ولد من صلب إبراهيم عليهم السلام .

وقد اختلف العلماء والمؤرخون فى شخص الذبيح ، ونحن نرجح أن يكون هو إسماعيل لعدة أمور :

(أولها) وهو أهمها قوله تعالى : « فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » (٧١ هود) .

والذى بلغ بشارة الله هم الملائكة الذين جاءوا إبراهيم عليه السلام فى صورة البشر ، وأخبروه أنهم مرسلون الى قوم لوط ليهلكوهم - وكان نبى الله لوط ابن أخ لإبراهيم عليهما السلام .

وكانت سارة زوجة إبراهيم عليه السلام قائمة تسمع البشرى بهلاك قوم لوط المجرمين، فضحكت سرورا بذلك ، فبشروها ببشارة تخصها ، وهى أنها ستلد وأن ولدها سيكون اسمه إسحاق ، وأن إسحاق سوف ينجب ابنا يدعى يعقوب عليهم السلام ، فعجبت لهذه البشرى وقالت «ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب» (٧٢ هود) الخ .

ولما كانت هذه البشارة أمام إبراهيم عليه السلام ، فإنه علم منها أنه سيولد له إسحاق ويعيش وينجب ولدا اسمه يعقوب فلهذا يستحيل أن يأمره الله بذبحه بعد أن بشره الله بهذه البشارة ، التى تقتضى أن يبقى لا أن يذبح ويموت ، لما فى أمره بذبحه مع تبشيره بحياته من التناقض ، والتناقض فى أحكام الله مستحيل ، فهل فهمت أيها السائل المشاغب ؟

(وثانيها) أنه لما هاجر وترك قومه عابدى الأصنام ، بعد أن نجاه الله من النار ، طلب من الله ولدا من الصالحين ، فبشره بغلام حليم ، وذلك قوله تعالى

« وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم » (٩٩ - ١٠١ سورة الصافات) ، ولما كانت الفاء للترتيب والتعقيب ، فإنها تدل فى قوله تعالى «فبشرناه بغلام حليم» على أن البشارة بالغلام الحليم جاءت عقب الهجرة والدعاء بالولد .

وبما أن إسماعيل عليه السلام هو أول ولد جاءه بعد هذه الهجرة ، وبعد هذا الدعاء . بإجماع جميع الأديان والمؤرخين فإن ذلك حجة فى أنه هو الغلام الحليم الذى بشره الله به عقب دعائه ، وإذا كان إسماعيل هو الغلام الحليم، فإنه يكون هو الذبيح بلا أدنى ريب ، لأن مساق الآيات هكذا « فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك . فانظر ماذا ترى » الآيات من سورة الصافات .

(وثالثها) أنه ذكر فى التوراة أن الله امتحن ابراهيم عليه السلام ، فقال له (خذ ابنك وحيدك الذى تحبه ، وامض إلى بلد العبادة ، ثم اذبحه قربانا على أحد الجبال الذى أعرفك به) الخ .. ومعنى كون ولده وحيده أنه ليس له ولد غيره، وذلك لا يتحقق إلا مع إسماعيل ، أما إسحق فقد رزق به بعد إسماعيل ولم يكن إسحق وحيدا ، فقد كان إسماعيل موجودا ينفى الوحدة عنه ، فالوحدة إذن لا تصح إلا لإسماعيل ، لأنه فى أول شبابه لم يكن لأبيه ولد سواه فيكون هو الذبيح لا إسحاق .

وقد ولد إسماعيل وسن أبيه ست وثمانون سنة، وولد إسحق وسن أبيه مائة سنة ، كما جاء فى التوراة ، وأما ذكر إسحاق فى التوراة بعد قوله (ابنك وحيدك الذى تحبه) فتترك الحكم عليه للقارىء، فهو أعلم بما كان اليهود يفعلونه بها من التغيير والتبديل، فالحق أنها من إضافاتهم لأن إسحاق لم يكن ابنه الوحيد بالإجماع كما ذكرنا .

وهناك أدلة أخرى، وحسبنا ماذكرنا ولا تغفل عن أن هذه ليست عقيدة ، وإنما هى مسألة تاريخية ، والحق فيها ما ذكرنا .

لماذا لم ينه القرآن عن الاسترقاق ؟

ثم يمضى موظف الإصلاح المسيحى فى تضاليل زملائه المسلمين وتشكيكهم فيقول:

٤ — لماذا لم ينه القرآن عن اتخاذ العبيد والأرقاء فى آيات صريحة ؟

وقبل أن نجيب على هذا السؤال نقول: إن السائل يقصد من وراء سؤاله أن الإسلام لم يكن جادا فى منعه المسلمين من الاسترقاق ، ولو كان جادا لنص القرآن على منعه .

وردنا على ذلك أنه ما كان يليق بك توجيه هذا السؤال ، فإن من كان بيته من زجاج لا يقذف الناس بالحجارة ، فأنتم الذين استعبدتم البشر ، وجعلتم استعبادهم مشروعا ، وجاء الإسلام ليخلص البشرية من هذا الميراث ، ففى الباب العشرين من كتاب الاستثناء ما يأتى :

« وإذا دنوت من قرية لتقاتلها ادعهم أولا إلى الصلح (١٠) فإن قبلت وفتحت لك الأبواب فكل الشعب يخلص ويكونون لك عبيدا يعطونك الجزية (١١)

فما قولك أيها السائل فى هذا النص الثابت فى عهدكم القديم ؟ لقد جاء الإسلام والاسترقاق متأصل فى نفوس الناس ، مشركين وأهل كتاب ، ولما كان إبطاله شاقا عالجه بالحكمة ، فجعل العتق أحد كفارات اليمين والظهار والفطر فى رمضان فى بعض حالاته ، ومنع بيع الجارية التى تحمل من سيدها ، لأن ولدها سيكون سيبا فى حريتها ، وشرع مكاتبة العبيد والإماء والتعاقد معهم على الحرية فى مقابل عوض يتفق عليه بين السيد ومملوكه ، وفرض فى الزكاة حصة لتخليص رقابهم فى قوله تعالى « وفى الرقاب » وغير ذلك من تيسيرات العتق ، ومنها أنه استحب إعتاقهم ووعد جزيل الثواب عليه .

هذا هو موقف الإسلام من عتق الأرقاء ، وهو موقف يتسم بالحكمة والصواب ، وليس فى شريعته استرقاق من يصالحنا ، كما مضى فى نص العهد القديم ، بل فيه الوصية بتأمين المشرك المستجير حتى يبلغ مأمنه : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » ـ ٦ ـ التوبة ، وفيه الوصية بأهل الذمة اليهود والنصارى المسالمين ، قال صلى الله عليه وسلم : (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) وقال (من آذى ذميا فقد أذانى) .

لماذا كان المسيح يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ؟

ثم يمضى الموظف المسيحى بالإصلاح

الزراعى فى محاولة تشكيكه لزملائه المسلمين وتضاليلهم فيقول :

(٥) لماذا كان للمسيح صفات إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، أليس ذلك يدل على أنه أفضل الأنبياء بالإضافة إلى أنه سيقتل المسيح الدجال .

وزداً على ذلك نقول : إن السائل تلطف مع زملائه ، فلم يقل ما فى نفسه ، وماهى عقيدته وهى أن إحياءه للموتى وإبراءه للأكمه والأبرص دليل على أنه ابن الله ، كما يزعمون ، ثم نقول إن هذه وسابقاتها وغيرها قصة معروفة ومدونة عند أولئك المتصيدين من مئات السنين ، وقد علموا من قديم أنها نغمة ناشزة لم تفدهم ، وكان عليهم أن يكفوا عن هذا الهذيان فالحق واضح لذوى الأبصار .

إن لكل نبى معجزة ليست من صنعه ، بل هى من صنع خالقه الذى بعثه ، لتكون شاهدا على صدقه .

وآية كل رسول تناسب زمانه الذى بعث فيه ، ففى عهد موسى عليه السلام كان السحر سائداً عند الفراعنة واليهود فجعلت آيته ذات مظهر يشبهه ولكنها تخالفه ، فقد كانت آيته عصا تنقلب حية كما تنقلب حبالهم وعصيهم حيات ، ولكنها كانت تلقف ما يأفكون ويبطل بها السحر والساحرون ، وكان الطب سائداً فى عهد عيسى ، فكانت معجزته من نوع خارق للعادة فى الطب ، إذ كان يعالج الأمراض المستعصية بدعاء الواحد القهار ، أما الطب فكان يعالجها بالعقار وكان يحيى الموتى بإذن الله ، أما الطب فيقف عند ذلك حائرا .

زد على ذلك أن بنى إسرائيل كانوا مأخوذين ومبهورين بمعجزة موسى ، فلا يقنعهم أن يجيئهم رسول بعده بمعجزة دون معجزته التى أبطل بها السحر ، وشق بها البحر حتى عبروا فى طرق يابسة إلى برسيناء ، وضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، فلا بد أن يجيئهم عيسى عليه السلام بمعجزة تفوق معجزة موسى ، حتى يمكن زحزحتهم عن عقيدتهم فيه وفى أمه مريم البتول ، فلهذا جاءت معجزته على هذا النمط الذى جاءهم به ، بإذن الله رب العالمين ، وما له عليها من اقتدار ذاتى .

وأما قتله للمسيح الدجال فإنه تابع لمهمته الأصلية التى تتصل به شخصيا ، ولا بد

من نزوله من أجلها كما بيناه فى مقال المجلة فى عدد شعبان ، وتتلخص مهمة نزوله فيما يأتى :

(١) أن يشهد لأخيه محمد صلى الله عليه وسلم بأنه هو الرسول الذى بشرهم به بعد أن كذبوه .

(٢) أن يصحح خطأ المسيحيين فيما اعتقدوه فيه ، فيعلمهم أنه ليس إلها ولا ابنا لله ولا ثالث ثلاثة .

(٣) أن يبين خطأ اليهود فيما زعموه فيه وفى أمه .

(٤) أن يقتل المسيح الدجال ويكسر الصليب ويقتل من يبقى على عقيدة فيه تخالف كونه نبيا مرسلا كسائر المرسلين إلى غير ذلك مما يتصل بهذه المهمة .

ويتبين من ذلك أن معظم مهمته يتعلق بتصحيح أمره أمام بنى إسرائيل ، وأن يؤكد أن شريعة محمد هى شريعة إخوانه النبيين ، ردا على قومه بنى إسرائيل الذين كفروا بذلك ، وأن يحمل الناس عليها لتكون كلمة الله هى العليا ، وصدق الرسول إذ يقول: « الأنبياء بنوعلات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد »

ولولا ذلك لما كان هناك داع لنزوله فالإسلام يشق طريقه فى أرجاء العالم بفضل القرآن العظيم ، وقيام العلماء ببيان حقه الواضح ، فهو الدين الخالى من الخرافات والخزعبلات وتأليه البشر ، المنزه للأنبياء عن المعاصى ، الذى يجعل السلطان للواحد الديان ، لا لرجال الأديان ، وصدق الرسول إذ قال « ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة » ونلخص مقالنا فى أن العقيدة الحقة تقتضى البعد عن المفاضلة بين المرسلين ، فذلك من شأن الله وحده ؛ قال تعالى : « لا نفرق بين أحد من رسله » وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تفضلونى على يونس بن متى » وذلك لمنع الناس من الخوض فيهم بالباطل ؛ وأن الإسلام حرر الأرقاء ؛ أما غيره فقد شرع استبعاد المسالمين . وأحب أن يعيش هذا المجادل بالباطل مع إخوانه المسلمين فى محبة ووئام ؛ فلا يفكروا فى غير عملهم ووطنهم ، « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » وليعلم أيضا أن شعارنا هو قول الله تعالى « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ؟

مصطفى محمد الطير